عبد الرحمن الكواكبى

(١٢٦٥ - ١٣٢٠هـ/ ١٨٤٨-١٩٠٢م)

أ.د. محمد إبراهيم الجيوشى(*)

السيد عبد الرحمن الكواكبى واحد من الأعلام البارزين في حياة هذه الأمة، والعاملين على نهضة الشرق والمسخرين إمكاناتهم الفكرية والعلمية فى الدعوة إلى نهضة العالم الإسلامي، واحتلال المكانة اللائقة به فى تاريخ الحضارة الإنسانية. لما يتمتع به من أسباب تدعو إلى القيادة والسيادة والتقدم والرقى وفى مقدمتها المبادئ السامية التى حفل بها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. ولذلك كان مثيراً للدهشة أن تكون تلك المبادئ بأيدى المسلمين يتدارسونها ليل نهار وهم غافلون عنها يغطُّون فى سبات عميق من التأخر والانحطاط الفكرى والاجتماعى، فكان ذلك داعيا له ولأمثاله من المصلحين والمفكرين أن يبحثوا عن أسباب هذا التأخر، ويكشفوا عنها حتى يمكن التغلب عليها والتخلص من آثارها المدمرة التى جعلت الشعوب الإسلامية تواجه هذا التأخر وتعيش هذا الوضع المأساوى.

وقد شهد القرن الرابع عشر الهجرى، التاسع عشر الميلادى حركة يقظة وصحوة شملت أنحاء العالم الإسلامي، فهبّ عدد من القادة والمفكرين فى البحث عن الأسباب التى جعلت المسلمين فى المؤخرة وصاروا هدفاً

(*) الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة جامعة الأزهر.

لدول الغرب تستعمر بلادهم وتسومهم سوء العذاب. وفي رأيى أن ذلك يمثل حلقة من حلقات الحروب الصليبية التى تعمل بدون كلل على طمس معالم الإسلام والقضاء على الهوية الإسلامية، وإشعار المسلمين بأنهم أقل من سواهم من الشعوب المسيحية. ولازالت هذه سياسة الغرب حتى الآن.

هذه الأوضاع البائسة التى عمت العالم الإسلامي جعلت المستنيرين من أبناء المسلمين يسعون لإخراج أمتهم من هذا الشقاء. وكذلك قام عدد منهم بدعواته الإصلاحية فى كل بلد من بلاد المسلمين تقريبا. ففى مصر كانت دعوة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده. وفى المغرب العربى كانت الدعوة السنوسية التى أخذت على عاتقها أن تربى جيلاً يعتز بدينه ويفهمه الفهم الصحيح. ويتمسك بأخلاق الإسلام وقيمه. ويعمل جاهداً على إيقاظ بنى جلدته ويدفعهم إلى الأخذ بالأساليب التى يقتضيها العصر من دراسة العلوم الحديثة وإنشاء الصناعات وإقامة المشروعات التى تمد الشعوب بما تحتاج إليه والأخذ بأساليب العصر فى دراسة العلوم الرياضية والطبيعية والعسكرية.

وفي سوريا قاد حملة التنوير السيد عبد الرحمن الكواكبى. وحينما نبحث عن قاسم مشترك بين أصحاب هذه الدعوات نجد أن اهتمام هؤلاء المصلحين ينصب على إيقاظ الشعوب الإسلامية من سباتها وتقديم المناهج التى تعينهم على الخروج من حالة الخمول والفتور التى أدت بهم إلى هذا التأخر المخيف. فبعض بلاد المسلمين كانت تعانى من وطأة الاستعمار الغربى كما كان الحال فى المغرب العربى الذى وقع تحت الاستعمار الفرنسى ثم الإيطالى فى ليبيا. ومصر والسودان والهند وبعض البلدان

الأخرى التى ابتليت بالاستعمار الإنجليزى، وأندونيسيا التى عانت من الاستعمار الهولندى. والأجزاء التى لم تستعمر من الغرب كانت تعانى من استبداد الحكام وعسف الولاة وبطشهم بالشعوب كما كان الحال فى سوريا ولبنان[1].

وفى حلب بسوريا نشأ الكواكبى في أسرة عريقة النسب والجاه ومعروفة المكانة وقد تشرب الكواكبى من نشأته فى أسرته أنبل القيم وأسمى الأخلاق فنشأ على المروءة والصراحة والسماحة والرجولة والشجاعة التى تدفعه إلى إبداء رأيه فيما يراه من أوضاع سواء رضى أصحاب النفوذ والسلطان عن رأيه هذا أو لم يرضوا. إنما كان همه أن يقف بجانب الحق مهما كان الثمن وأن ينتصف للضعيف وأن يدفع الظلم عن المظلوم مهما كلفه ذلك.

وكان قد تهيأ له فى فترة صباه وشبابه من الوسائل ما أعانه على أن تصبح هذه الأخلاق ملكة، يصدر عنها ويلتزم بها، فقد توفيت والدته وهو في سن لم يبلغ السادسة من عمره. وكانت له خالة ذات مواهب وثقافة عالية تعتبر نادرة في نساء زمانها وكانت تعيش في مدينة أنطاكية فقامت على رعايته ولقنته كل ما تحمله من قيم وما تلتزم به من أخلاق وظل في رعايتها يتعلم منها ويأخذ عنها على مدى ثلاث سنوات ثم عاد إلى حلب وتولى والده القيام على توجيهه وتثقيفه، وكانت لهم مدرسة تسمى المدرسة الكواكبية كان أبوه يتولى التدريس بها إلى جانب مجموعة من العلماء

(١) كان ذلك قبل الاستعمار الفرنسى.

الأجلاء. وكان أبوه كذلك يقوم بالتدريس فى الجامع الأموى بحلب. فى هذا الجو العلمى نشأ عبد الرحمن الكواكبى فحفظ القرآن الكريم واستوعب المناهج التى كانت تدرس فى مدرسة أسرته. وكانت تمضى على النظام المتبع فى الأزهر فدرس النحو والفقه وعلوم العربية والعلوم الإسلامية الأخرى.

ولما بلغ الحادية عشرة من عمره عاد إلى أنطاكية فقضى بها عاماً قام فيها على توجيهه عم والدته وأحد أقاربه من جهة أمه. وكانا من المشهود لهما بالعلم. والمكانة المرموقة إذ كان أحدهما عضو شورى الدولة. والآخر كان مشهوداً له حتى إن الخديوى توفيق لم يجد أفضل منه ليقوم على تربية ابنه عباس حلمى. ولعل هذه الصلة كانت سبباً فى أن عباس حلمى قد هيئا له الأسباب لما هاجر إلى مصر لينشر آراءه وأفكاره ولم يكتف بذلك فقد أخذ يدرس العلوم الرياضية والطبيعية. وعكف على قراءة كتب التاريخ والقانون ومنها قوانين الدولة العثمانية وهيأ له والده من درس على يديه اللغتين الفارسية والتركية مما مكنه أن يقرأ ما كتب في هاتين اللغتين إلى جانب العربية وبخاصة اللغة التركية فقد كان بعض الأتراك الذين درسوا علوم الغرب يكتبون عن علوم الغربيين ودراساتهم ومناهج حياتهم ووسائل عيشهم ونظم الحكم عندهم مما جعله يقف على الفروق الهائلة التى يتميز بها شعوب الغرب عن شعوب العالم الإسلامي. وأدرك أن التعليم والحرية. والحفاظ على كرامة الإنسان وقيمته هيأت للشعوب الغربية أن تتقدم وترتقى في حين أن العالم الإسلامي محروم من التعليم والحرية فقد

كان الجهل والاستبداد آخذين بزمام الشعوب الإسلامية. فهانت على نفسها وعلى الآخرين.

في خضم الحياة

وماكاد الكواكبى يبلغ العشرين حتى أخذ ينغمس فى الحياة العملية. ففى سن الثانية والعشرين عمل محرراً فى جريدة ..فرات.. وكانت تصدر باللغتين العربية والتركية وكانت الجريدة الرسمية التى تصدرها الحكومة. ولم يكد يمضى عام على التحاقه بالجريدة حتى صار محرراً رسمياً بها براتب محدد.

ويبدو أن العمل بالصحافة قد استهواه أو صادف رغبة عنده إذ وجد فى الصحافة متنفساً يعبر فيها عن آرائه وملاحظاته فأنشأ جريدة عام ١٨٧٨ اسماها « الشهباء » يقول سامى الدهان: « وهى أول جريدة عربية صدرت فى حلب »، وينقل عن كامل الغزى صديق الكواكبى قوله: «إن هذه الصحيفة كانت أول معلن أذاع بين الناس فضل هذا العبقرى. وكشف لهم عما كان منطوياً عليه من المنزلة الرفيعة في عالم الأدب والسياسة، ولذا اغتبط الناس بهذه الصحيفة وأقبلوا عليها إيمّا إقبال. غير أنهم لسوء الحظ لم يتمتعوا باستجلاء محاسن هذه البكر الوحيدة سوى أيام قلائل حتى فاجأها القدر بانقضاء الأجل[1]».

(١) عبد الرحمن الكواكبى. صـ ١٩ تأليف سامى الدهان.

ولم يكد يصدر من الجريدة خمسة عشر عدداً حتى أصدر والى حلب قرارا بإغلاقها. لما اشتملت عليه من نقد لأعمال الوالى ومعاونيه فى الولاية. وكانت كما يقول الدهان تشير من طرف خفى إلى استبداد السلطان عبد الحميد وحرصه على تثبيت سلطانه وكان هذا منهجاً غير مألوف في الصحف التى كانت تكيل المديح للسلطان وتضفى عليه من الألقاب ما لا يليق به إلا الخالق جل وعلا من مثل قولهم ملجأ الخلافة وبانى الدنيا. وظل الله فى الأرض والسلطان الأعظم والذات والأقدس[1].

ولكن الفتى المتحمس لم يستكن لهذا الإغلاق فأنشأ جريدة أخرى عام ١٨٧٩م سماها .. الاعتدال .. وكانت تصدر باللغتين العربية والتركية. وأخذ يكتب فيها داعياً إلى حق قومه فى الحرية منددا بالاستبداد وخنق الحريات مما سبب قلقاً للحكومة فخشيت من انطلاق هذا التيار بين الشباب مما يصعب فيما بعده إيقافه فبادرت بإغلاق الجريدة. وقد ظل الكواكبى يعمل فى المجال الصحفى خمس سنوات نضج فيها قلمه وارتقى أسلوبه. واستقامت عبارته حتى تطلع كثيرون ممن يعملون فى حقل الكتابة ويعالجون السياسة أن يصلوا إلى ما وصل إليه.

ويبدو أن السلطات أرادت أن تحتوى هذا النشاط المتفجر فاصدرت قرارا بتعيينه عضواً فخرياً فى لجنتى المعارف والمالية في عام ١٨٧٩ ثم عين فى العام التالى عضواً فخرياً فى الأشغال العامة ثم محرراً للمقاولات. ثم أسند إليه رئاسة قلم المحضرين فى ولاية حلب ثم عضواً فخرياً فى لجنة

---

(١) عبد الرحمن الكواكبى. صـ٢٠. مرجع سابق.

امتحان المحامين ثم تنقل فى شغل عدد من وظائف الدولة مديراً فخرياً لمطبعة الولاية، فرئيساً للأشغال العامة فعضواً فى محكمة التجارة بولاية حلب، وكانت هذه السنوات التى قضاها فى وظائف الدولة قد صقلته وزادت من حصيلة تجاربه وأطلعته على كثير من أعمال الدولة. وعن أثر ذلك فى الكواكبى يقول سامى الدهان: «وهذه المرات التى شغلها الشاب عجمت عوده، ووقفته على أعمال الدولة، فارتقى من عضو إلى رئيس في كثير منها، وتسلم المناصب الدقيقة – كما نقول اليوم – ولاشك فى أنه كان فيها موضع الثقة والإعجاب لعلو ثقافته، وسمو نفسه وسعة مداركه، وحبه لبنى قومه، وسعيه فى الإصلاح، واعتقاده بأن الموظف ملك الدولة والأمة وهو أجير لها. يعمل لخيرها ورفعتها وسعادتها فى وطنية صادقة وإخلاص خالص»[1].

وكان لصراحته ونقده للوالى ورجاله أثر فى إفساد العلاقة بينهما، وأخذ الوالى يشدد فى مراقبته بعد أن عرف أن ما يكتب فى الصحف التركية واللبنانية من مقالات تندد به مستمد من كتابات الكواكبى، فازدادت مراقبته له. فلم يقبل هذه المراقبة ولم تسمح نفسه بإصلاح أموره مع الوالى فاستقال من وظيفته. وافتتح مكتباً للمحاماة، يقدم فيه الفتاوى لأصحاب الدعاوى. ويكتب الدعاوى لمن وقع عليهم الظلم من أبناء الشعب ضد الحكام، ويرشد المحامين إلى ما يصعب عليهم فهمه من الأحكام والقوانين، وصار مكتبه هذا بمثابة مأوى لمن وقع عليهم ظلم الوالى.

(١) عبد الرحمن الكواكبى: صـ ٢١. مرجع سابق.

فيوجههم الكواكبى إلى الطريقة التى تمكنهم من التخلص من عدوان الوالى وترفع الظلم عنهم. ويقول د. سامى الدهان أنه كان يشجع المظلومين على رفع ظلامتهم. ويتولى بنفسه تحرير الكتب والشكاوى ويرسلها عن طريق البريد أو البرق[1].

وزادت حدة العداء بين الوالى والكواكبى. وخلال هذه الفترة وقع خلاف بين الوالى وقنصل انجلترا. وأرسل أحد رجال السفاره الإنجليزية للتحقيق فى أمر هذا الخلاف بعد أن تم الاتفاق على ذلك مع الباب العالى. وتردد المندوب الإنجليزى مرات على الكواكبى غير أن الكواكبى لم يسمح لنفسه أن ينصر القنصل الإنجليزى على الوالى وكانت النتيجة أن اقترح المندوب عزل القنصل عن حلب ومع هذا تمادى الوالى فى عدائه للكواكبى حتى اتهمه بأنه اشترك فى مؤامرة لقتله. وألقى به فى الحبس هو وجماعة ممن كانوا يلوذون به شاكين من ظلم الوالى. وكان هناك موفد من السلطان لبحث الأمور والوقوف على الحقيقة فعلم بما أقدم عليه الوالى. وكتب بذلك إلى السلطان فاصدر أمره بإطلاق سراح الكواكبى ومن معه وتنحية الوالى وإرساله إلى الحجاز.

وقد لوحظ أن الكواكبى كلما تولى أمراً ضبطه وحسن أعماله. وحاول إصلاح الأوضاع فى أى عمل يسند إليه.

---

(١) عبد الرحمن الكواكبى: صـ٢٢. مرجع سابق.

شخصيته وأخلاقه:

كان للتربية التى تلقاها الكواكبى والأخلاق والقيم التى ورثها عن أسرته أبعد الأثر فى تكوينه الشخصى وتمتعه بطائفة من الأخلاق تدفع الآخرين إلى تقديره واحترامه يقول عن شخصيته أحمد أمين: «يستعصى على ناقد الأخلاق نقده. مؤدب اللسان. فلا تؤخذ عليه هفوة. يزن الكلمة قبل أن ينطق بها وزناً دقيقاً. حتى لو ألقى عليه السلام يفكر فى الإجابة. متزن فى حديثه. إذا قاطعه أحد سكت. وانتظر حتى يتم حديثه. ثم يصل ما انقطع من كلامه. فيؤدب بذلك محدثه. نزيه النفس. لا يخدعها مطمع. ولا يغريها منصب. شجاع فيما يقول ويفعل. مهما جرت عليه شجاعته من سجن وضياع مال وتشريد. وهو ـ مع أنفته وعزته وصلفه على الكبراء – متواضع للبائسين والفقراء. يقف دائماً بجانب الضعفاء. ويشع على من يجالسه الاتزان والتفكير الهادئ وحب الحق. ونصرة المبدأ. والتضحية للفضيلة[1].

وقد تعرض فى حياته نتيجة لهذه الشخصية التى تميز بها لكثير من المتاعب والمصاعب من تقديم للمحاكمة إلى ضياع للأموال إلى صراع متواصل مع الولاة الذين يوقعون الظلم على الناس. ويستغلون سلطانهم لتحقيق مآرب غير مشروعة فتارة ينتصر عليهم وتارة يلقى به فى السجن ويفقد أمواله. ولكن ذلك كله لم يجعله يتخلى لحظة عما التزم به من قيم وأخلاق

(١) زعماء الإصلاح. صـ٢٦٧.

غير أنه لما وجد أن بقاءه فى حلب لن يمكنه من الجهر بما يراه صواباً، شد رحاله إلى القاهرة وظل بها حتى لقى ربه عام ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م. وفى خلال إقامته بالقاهرة وجد متنفساً يعبر عن آرائه فى الإصلاح والكشف عن الأسباب التى يعانى منها العالم الإسلامي سواء مما يتعلق باستبداد الحاكمين أو جهل وتواكل الشعوب التى توالت عليها الكوارث فأصيبت بحالة من الجمود تحتاج إلى من يحركها. وينبهها حتى تفيق مما أصيبت به.

رحلاته :

كانت حالة العالم الإسلامي قد شغلت فكر الكواكبى. وأخذ يفكر فى وسيلة يكشف بها عن أسباب هذا الضياع الذى يلف المسلمين. فقام بعدة رحلات إلى إفريقيا وآسيا وبلاد العرب درس فيها أوضاع الشعوب وأحوال تلك البلاد. وما فيها من ثروات وكان قد ذهب إلى تركيا وظل بها فترة يرقب ويسجل ما يراه ويختزن فى ذاكرته ما لا يستطيع تسجيله. وكان قد أهمه وشغل فكره الأوضاع التى تسود العالم الإسلامي وأخذ يفكر فى كيفية النهوض بالمسلمين وانتهى إلى أن سبب تأخر العالم الإسلامي يرجع إلى الجهل وعدم الحرية والاستبداد وسيطرة الخرافات وإسناد الأمور إلى غير أهلها وكان الرجل قد نضجت تجاربه وأخذ يقارن بين ما يعانيه العالم الإسلامي من تأخر وما يعيش فيه الغرب من تقدم وما يتمتع به سكانه من حريات وحقوق تدفع الحياة إلى التقدم وتعود بالرخاء على الشعوب. فأخذ يفكر فى مشروع حضارى يزيل عن العالم الإسلامي ما يعانيه من شقاء.

منهجه في الإصلاح:

ضمن الكواكبي منهجه في الإصلاح كتابين نشرهما على الناس وسجل فيهما رأيه في الإصلاح وتحقيق نهضة العالم الإسلامي وكان قد نشر جانباً من هذين الكتابين في بعض الصحف.

أما الكتاب الأول: وهو أم القرى فقد درس فيه أحوال العالم الإسلامي وسجل ما رآه في كل بلد من أسباب أدت إلى التأخر أو الفتور كما سماه، فدعا إلى إقامة جميعه تضم مندوبين عن بلاد المسلمين يدرسون أوضاع العالم الإسلامي ويقترحون ما يرونه من وسائل للخروج من هذا الوضع الذى سماه بالفتور. ويضع أساساً لنهضة المسلمين واقترح أن يكون الاجتماع في مكة المكرمة باعتبارها مهبط الوحي والرسالة وربط ذلك الاجتماع بموسم الحج وفي ذلك إشارة إلى فهم الكواكبي لما يهيئة الحج من لقاء أبناء العالم الإسلامي يتدارسون مشاكلهم ويقترحون الحلول لها ويتحدث عن السبب الداعي إلى تشكيل هذه الجمعية التي سماها «جمعية أم القرى» فيقول: «إنه لما كان عهدنا هذا وهو أوائل القرن الرابع عشر[1] عهداً عمّ فيه الخلل والضعف كلمة المسلمين، وكان من سنة الله في خلقه أن جعل لكل شيء سبباً. فلابد لهذا الخلل الطارئ والضعف النازل، من أسباب ظاهرية غير سر القدر الخفي عن البشر. فدعت الحمية بعض أفاضل العلماء والسراة والكتاب السياسيين للبحث عن أسباب ذلك. والتنقيب عن أفضل الوسائل

(١) الهجرى.

للنهضة الإسلامية. فأخذوا ينشرون آراءهم فى ذلك فى بعض الجرائد الإسلامية الهندية والمصرية والسورية والتاتارية وقد اطلعت على كثير من مقالاتهم الغراء فى هذا الموضوع الجليل، واتبعت أثرهم بنشر ما لاح لى فى حلّ هذا المشكل العظيم.

ثم بدأ لى أن أسعى فى توسيع هذا المسمى بعقد جمعية من سراة الأمة فى مهد الهداية أعنى مكة المكرمة فعقدت العزيمة متوكلاً على الله تعالى على إجراء سياحة مباركة بزيارة أمهات البلاد العربية، لاستطلاع الأفكار وتهيئة الاجتماع فى موسم أداء فريضة الحج[1].

وقد سجل الكواكبى آراءه فى دراسة أحوال المسلمين فى أنحاء العالم الإسلامي على ألسنة مندوبين من مختلف الأنحاء يعرضون أسباب التدهور الذى أصيب به العالم الإسلامي ويقترحون الحلول للخروج من هذا الوضع السيئ. وقد عرض هذه الدراسة فى اثنى عشر اجتماعا جعل رئاسة الجمعية إلى ممثل مكى وسكرتاريتها إلى «السيد الفراتى» يعنى نفسه. وقد حدد فى الاجتماع الأول القضايا الأساسية التى ستقوم الجمعية بدراستها واقتراح الحلول لها ولخصها فى عشر مسائل هى:

١- موضع الداء. ٢- أعراض الداء.

٣- جراثيم الداء. ٤- ما هو الداء.

٥- ما هى وسائل استعمال الدواء.

---

(١) أم القرى . صـ٣. ٤.

٦- ما هى الإسلامية. ٧- كيف يكون التدين بالإسلامية.

٨- ما هو الشرك الخفى. ٩- كيف تقاوم البدع.

١٠- تحرير قانون لتأسيس الجمعية[١].

ويجب أن نشير هنا إلى أن هذه الاجتماعات وتلك الجمعية والقضايا التى أثيرت فيها والأعضاء الذين اشتركوا فى المناقشات التى تناولت الأوضاع فى العالم الإسلامي كل ذلك كان من تصور الكواكبى وتخيله فى اقتراح مشروع لنهضة العالم الإسلامي كما سجل ذلك حفيده وسميه فى تقديم الكتاب. وأنه كتب هذا الكتاب وكذلك كتاب طبائع الاستبداد قبل مغادرته حلب إلى القاهرة.

وفى الاجتماع السابع للجمعية لخص الكواكبى أسباب الفتور الذى أصاب العالم الإسلامي فى ثلاثة أنواع أساسية يحتوى كل منها على عدة أسباب:

أولاً: أسباب دينية ويندرج تحتها ثلاثة وعشرون سبباً.

ثانياً: أسباب سياسية ويندرج تحتها ستة عشر سبباً.

ثالثاً: أسباب أخلاقية ويندرج تحتها سبعة عشر سبباً[٢].

---

(١) أم القرى . صـ١٩

(٢) أم القرى . صـ١٥٨-١٦١.

وبعد أن يعرض هذه الأسباب التى تناولها المجتمعون وبعد أن يعرض الأسباب التى جاءت على ألسنة أعضاء الجمعية يشير الكواكبى إلى أن الحكومات الإسلامية لها دور كبير فى وجود الخلل الذى أصيب به العالم الإسلامي فيضيف عشرين سبباً ناتجة عن الخلل السياسى والإدارى ويلقى التبعة الكبرى في ذلك على المملكة العثمانية وفى ذلك يقول: «حيث كان للخلل الموجود فى أصول إدارة الحكومات الإسلامية دخل مهم فى توليد الفتور العام فإنى أضيف إلى الأسباب التى سبق البحث فيها من قبل الإخوان الكرام الأسباب الآتية أعددها من قبيل رؤوس مسائل فقط حيث لو أردت تفصيلها وتشريحها لطال الأمر ولخرجنا عن صدد محفلنا هذا.

والأسباب التى سأذكرها هى أصول موارد الخلل فى السياسة والإدارة الجاريتين فى المملكة العثمانية. التى هى أعظم دولة يهم شأنها عامة المسلمين. وقد جاءها أكثر هذا الخلل فى الستين سنة الأخيرة أى بعد أن اندفعت لتنظيم أمورها. فعطلت أصولها القديمة. ولم تحسن التقليد ولا الإبداع. فتشتت حالها. ولا سيما فى العشرين سنة الأخيرة التى ضاع فيها ثلثا المملكة. وخرب الثلث الباقى وأشرف على الضياع لفقد الرجال وصرف السلطان قوة سلطنته كلها فى سبيل حفظ ذاته الشريفة وسبيل الإصرار على سياسة الانفراد»[1].

ثم يتابع ملاحظاته فيقول: وأما سائر الممالك والإمارات الإسلامية فلا تخلو أيضاً من بعض هذه الأصول. كما أن فيها أحوالاً أخرى أضرّ وأمرّ

---

(1) أم القرى . صـ١٦٢.

يطول بيانها واستقصاؤها. ثم يضيف واحداً وعشرين سبباً تتعلق بالسياسية والإدارة العثمانيين. ويتبعها بتسعة أسباب تحت عنوان أسباب شتى.

ويلاحظ أن الكواكبى يرى أن الخلافة يجب أن تكون عربية قرشية ومقرها مكة.

وهناك ملحق قد سجله فى نهاية الكتاب وهو عبارة عن حوار دار بين الصاحب الهندى وبين أحد الأمراء خلاصته أن الكواكبى يرى أن هناك فرقاً بين الخلافة والملك ويفهم مما سجله أنه يرى أن الخلافة تكون أمراً شرفياً ينطبق عليها المقولة السائدة فى الملكية الدستورية أن الملك يملك ولا يحكم.

أما المُلْك فإنه أحياناً يأتى بأمور رعاية للملك ولكنها مصادمة للدين. ويضرب مثلاً لذلك أن محمد الفاتح وهو أعظم سلاطين آل عثمان قد اتفق مع فرديناند وإيزابيلا على تمكينهما من إزالة ملك بنى الأحمر آخر الدول العربية فى الأندلس ورضى بالقتل العام والإكراه على التنصر بالإحراق وضياع خمسة عشر مليوناً من المسلمين حين لم يبعث أساطيله لإغاثة المسلمين وكان ذلك منه مقابلاً لما قامت به روما من خذلان الإمبراطورية الشرقية عند مهاجمته مقدونيا ثم القسطنطينية[1].

والسلطان سليم غدر بآل العباس وأستأصلهم حتى إنه قتل الأمهات لأجل الأجنة وبينما كان يقتل العرب فى الشرق كان الأسبانيون يحرقون

(١) هذا رأى يخالف الواقع لأن الفاتح كان قبل ما حل بالأندلس من نكبات.

بقيتهم في الأندلس وقد سعوا في سبيل ملكهم في انقراض خمسة عشر دولة وحكومة إسلامية ومنها أنهم أغروا الروس وأعانوهم على التتار المسلمين وهولندا على الجاوة والهنديين.

ويعدد أعمالاً أخرى قام بها سلاطين الترك تنافى الدين مراعاة للملك كما نقول ومن يريد استيعاب ذلك يراجع ما كتبه في الصفحات ٢٢٩ – ٢٣٤ من أم القرى.

أما الكتاب الثانى الذى نشر للكواكبى فهو طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد والكتاب يتكون من ثمانية فصول ناقش فيها ألوان الاستبداد ومظاهره وآثاره المدمرة وقد نشر الكتاب مقالات متتابعة فى جريدة المؤيد بعد أن التقى بالشيخ على يوسف وكان ذلك فى عام ١٣١٨هـ/١٩٠٠ ميلادية وقد قام بتهيئة هذا اللقاء الشيخ رشيد رضا ثم طبع الكتاب بعد ذلك فى مصر. وفى مقدمته يقول عن مصادره والهدف الذى يرمى إليه من نشر هذا الكتاب «نشرت في بعض الصحف الغراء أبحاثاً علمية سياسية فى طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد منها ما درسته ومنها ما اقتبسته غير قاصد بها ظالماً بعينه. ولا حكومة مخصصة، إنما أردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين عسى يعرف الشرقيون أنهم هم المتسببون لما هم فيه. فلا يعتبون على الأغيار ولا على الأقدار. وعسى الذين فيهم بقية رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات»[1]. ثم يقول: «وجعلته هدية منى للناشئة العربية المباركة الأبية المعقودة آمال الأمة بين نواصيهم. ولا غرو

(١) طبائع الاستبداد ص ٢٥ نشر دار النفائس.

فلا شباب إلا الشباب والله ولى التوفيق». وقد قال ناشر الطبعة الثانية من كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. وهى كلمات حق وصيحة فى واد إن ذهبت اليوم مع الريح لقد تذهب غداً بالأوتاد، والكتاب يقع فى ثمانية فصول.

تناول الفصل الأول الحديث عن الاستبداد والدين ورد فيه على ما يقوله الغربيون من أن الاستبداد السياسى ناشئ عن الاستبداد الدينى. ورد هذه المقولة مبيناً أن الكتب السماوية تدعو إلى خشية الله وحده، وأن الإسلام هدم القواعد التى تدعو إلى الاستبداد وأقام حكومة الراشدين التى أعطت للإنسان حقه. والقرآن الكريم ملىء بالآيات التى تدعو إلى الحرية واستقلال الرأى وتثبيت الشورى حتى فى القصص الذى أورده كما جاء فى قصة بلقيس.

وفي الفصل الثانى – يناقش الاستبداد والعلم وأنه إذا كان هناك علم ومتعلمون فلن يكون هناك استبداد. وأن سبب الاستبداد هو الجهل الذى يسود الشعوب. ولذلك يحارب المستبد العلوم التى تفتح العقول وتنبه الأنفس إلى حقوقها.

والفصل الثالث يتحدث عن الاستبداد والمجد ويفرق بين المجد والتمجد فالمجد أمر طبيعى تتطلع إليه النفوس. أما التمجد فأصحابه يمثلون المتسلقة الذين يترامون على أقدام المستبد فهم أعداء العدل.

وفي الفصل الرابع يتحدث عن الاستبداد والمال وأن عدم العدالة الاجتماعية يؤدى إلى الاستبداد. وعدم التوازن فى توزيع الثروة يدعو

أصحاب الأموال إلى ابتلاع حقوق الفقراء والضعفاء، وقد قرر القرآن الكريم أن الطغيان نتيجة الغنى فقال: ﴿كَلا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى۞ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[1].

وفي الفصل الخامس يتحدث عن الاستبداد والأخلاق وأن الأخلاق حينما تسود في أمة من الأمم تحميها من الاستبداد لأن أصحاب الأخلاق لا يرضون بالظلم ولا يسكتون عن الطغيان ولذلك إذا نشأ الاستبداد في أمة فإنه يفسد الأخلاق وينشر الحقد ويضعف رابطة الوطنية.

وفي الفصل السادس يناقش الاستبداد والتربية. فالاستبداد يسقم الأجسام ويفسد الأخلاق. وفي ذلك هدم لما تقوم به التربية.

وفي الفصل السابع يتناول الاستبداد والترقي ومظاهر الترقي تكون في الصحة والعلم والقوة والمال. وما لم يعترض الإنسان مانع يسلب إرادته كالعجز والاستبداد فسيعمل على رقي أموره علمياً وصحياً وثراءً وخلقياً ولذلك يقتل الاستبداد هذه القيم ويعمل المستبدون على تواريها حتى يبقى لهم سلطانهم.

وفي الفصل الثامن يناقش كيفية التخلص من الاستبداد، ويكون ذلك بنشر العلم وسيادة الأخلاق وحفظ الحقوق وسيادة القانون والعدالة في توزيع الحقوق ولا بدّ لكي يتحقق هذا أن تسود الحرية لأن الحرية إذا فقدت لا يشعر الأفراد بآلام الاستبداد.

---

[1] العلق ٦-٧

هناك مقولة ذكرها صاحب كتاب «التعاشيب» أن الكواكبى لم يأخذ حقه من التقدير لأنه ليس مصرياً وقد فاز بذلك الشيخ محمد عبده والأفغانى وهذا ليس صحيحاً فقد نشر الكواكبى كتبه فى مصر وكتب عنه أحمد أمين فى زعماء الإصلاح وفيض الخاطر وكتب عنه سامى الدهان فى سلسلة نوابغ الفكر العربى التى تنشرها دار المعارف وكتب عنه رشيد رضا فى المنار وسواهم كثير ولما مات فى مصر عام ١٩٠٢م اهتم الخديوى عباس به ونقش على قبره بيتان لحافظ إبراهيم:

هنا رجل الدنيا هنا مهبط النفى

هنا خير مظلوم هنا خير كاتب

قفوا واقرءوا أم الكتاب وسلموا

عليه فهذا القبر قبر الكواكبى

من الآثار التى ذكرت للكواكبى كتاب بعنوان «صحائف قريش» ولكنه قد ضاع فلم يعثر له على أثر على الرغم من أن الكواكبى كان قد أعده للطبع. غير أن سياحته فى بلاد الشرق والغرب لم تمكنه من طبعه.

ومن الآثار أيضاً كتاب بعنوان «العظمة للّه» وقد ذكر محمد كرد على أنه اطلع عليه ولكنه أيضاً قد ضاع فلم يعثر عليه ومن آثاره مجموعة أشعار قال عنها ابنه «إنها بلغت ثلاثة آلاف بيت من الشعر»

هـذه معالم سريعة لحياة هذا المفكر الأصيل والعالم الراسخ القدم. لعل فـى معالمهـا مـا يدفع شبابنا إلى العمل والتحلى بالقيم والأخلاق التى تبنى الأمم وتقيم الدول وتحفظ للشعوب كرامتها وحيويتها.